انجلت عن الثورة الفرنسوية بكل اهوالها

وهنا نمسك عنان القلم عن التفصيل في المقابلة بين هذين المؤلفين العظيمين والفيلسوفين الكبيرين وننظر نظرًا عامًا الى ما يتراءى لنا من اوجه المطابقة بينهما فنقول ان اكثر المواضيع التي طرقها ابن خلدون طرقها هربرت سبنسر ايضًا حتى المواضيع العلمية واللغوية والطبيعية والرياضية . وكلٌ منهما اعتمد على ما يُعرَف في عصره من مبادئ العلوم والفنون وحاول ان يتتبع فيها تاريخ العمران . ولكن معارف البشر قد نمت في هذا العصر وزادت زيادة بالغة عنها في عصر ابن خلدون ولذلك ترى الموضوع الذي كتب فيه هذا صفحة او صفحتين كتب فيه سبنسر فصلاً او كتابًا كبيرًا

موت الاطفال في المدن الكبيرة

يموت من الاطفال في الشهر الاوّل من عمرهم اربعة امثال ما يموت منهم في الشهر الثاني ثم يقلّ الموت رويدًا رويدًا حتى لا يموت منهم في السنة الثانية والثالثة معًا الاّ مقدار ما يموت في الشهر الاوّل . ولكنّ هذا الموت ليس على حدٍّ سوى في المدن والضياع لانهُ يموت من الاطفال في المدن مضاعف ما يموت منهم في الضياع . وهذه القضيّة من الاهميّة بمكان عظيم ويجب ان يهتمّ بها الدول الكبيرة كما يهتمّ العيال الصغيرة . ونحن عند ما نقول الضياع لا نعني ضياع الفلاحين في ارياف مصر لان الذي علمناهُ من احوالها يدلنا على ان اكثر اهاليها يعيشون حتى الآن عيشة الفقر المدقع والجهل التام بقواعد الصحة والاهمال المطلق لشروط النظافة . وانما نعني الضياع التي انتشرت فيها مبادئ التهذيب مثل ضياع جبل لبنان وضياع اوربا واميركا فان هذه الضياع سريعة النمو وهي التي تنمي المدن المجاورة لها بمن ترسل اليها من السكان

ومرادنا الآن ان نتفحص الاسباب التي تعرّض الاطفال للموت الكثير في المدن الكبيرة فنقول اذا التفتنا الى ما بين المدن والضياع من الاختلاف الذي يمكن ان يؤثر في حياة الاطفال وجدنا ان اكثرهُ يندرج في اربعة امور

الامر الاوّل اختلاف احوال الوالدين في المدن عنها في الضياع . ففي المدن الناس على اربع طبقات طبقة الاغنياء والمتوسطين والفقراء والمتروكين . فالاغنياء قد اغناهم المال عن السعي والكدح فلازموا البيوت والحانات وضعفت اجسادهم من قلة الرياضة وصارت مباءة للامراض والاوصاب . او استولت عليهم عوائد الترف فاكثروا من التأنّق في المآكل والمشارب

واعطاها من السهر واللهو فزادت اجسادهم نحولاً او بضاضة . او اطلقوا العنان لشهواتهم وانغمسوا في كل نوع من المنكرات فسدت ابدانهم وعقولهم . وكل ذلك يضعف النسل ويعرضهُ للمرض والموت الباكر . ولو انصف بعض الاغنياء لانقطع نسلهم حالاً . والمتوسطون يكثرون من السعي الذي يذهب بشارة الحياة ويجعل الرجل شيخًا وهو في عنفوان الشباب . هذا فضلاً عن ان الطمع في جمع المال والاثراء يحمل كثيرين من الطبقة الوسطى على تأخير الزواج الى ما بعد سن الشباب والكهولة فيتزوج الانسان منهم شيخًا ويخلف اطفالاً ضعفاء لا يقوون على احتمال العوارض التي تعرض للاطفال عادة . وفقراء المدن فقرهم مدقع تتعذر معهُ اسباب المعيشة لشدة ما في المدن من المزاحمة فلا يستطيعون ان يعتنوا باطفالهم الاعتناء الواجب ولا يبالون بهم كثيرًا لشدة ما يقاسون من مرارة العيش . والمتروكون ونعني بهم جميع المنغمسين في ارتكاب المنكرات الذين يعيشون بالزنا والفجور من الرجال والنساء تنشو فيهم الامراض التي تضعف النسل خاصةً وتزول من قلوبهم شفقة الوالدين فلا يعتنون باطفالهم ولا يهتمون بهم

ولا يخفى ان هذا الحكم غالبي لان كثيرين من اهالي المدن الاغنياء والمتوسطين والفقراء يعيشون بالاعتدال ويراعون قوانين الصحة والتهذيب كلها ويعتنون باطفالهم اشد العناية كطائفة الكويكر المشهورة بالغنى والعفة فانهُ يقال ان معدّل الموت بين اطفالها اقلّ من معدّل الموت بين اطفال كل الطوائف ومعدّل حياة افرادها اكثر من معدّل حياة الناس بين كل الامم

اما اهالي الضياع فاكثرهم من المتوسطين البعيدين عن الترف واسبابهِ وعن اكثر شرور الحضارة وهم يكرمون الزواج ويعتنون بالاولاد لانهم يتخذونهم سندًا لهم

الامر الثاني اختلاف احوال المدن عن احوال الضياع . فان المدن الكبيرة مزدحمة البيوت غالبًا كثيرة الفضول فاسدة الهواء والماء اذا ظهر فيها مرض وبائي انتشر حالاً فيها اقرب يومها واختلاط سكانها واذا تفاقل نظّار الصحة يومًا واحدًا تطرّق الفساد الى طعام الاهالي وشرابهم وهوائهم ولا سيّما اذا قدّر لها الله ان يتولى تدبير منافعها وياعانها شركات لاغرض لها الاّ الربح كيفما كانت طريقهُ فتطعم الاهالي لحم الجيف وتسقيهم ماء المستنقعات وتنشقهم روائح الاقذار وتبيع يومهم بغاز ممزوج بالسموم . واذا اراد الله بقوم سوءًا حكّم بهم طلاّب الغنى . اما الضياع فالغالب فيها ان تكون متفرقة البيوت طيبة الهواء والماء اذا فشا فيها مرض وبائي سهل حصرهُ في البيت او الحي الذي ظهر فيهِ او في القرية التي ظهر فيها . وكل ما تقدم يجعل حياة الاطفال في الضياع اقل خطرًا منها المدن

الامر الثالث اختلاف اسلوب التربية في المدن عنهُ في الضياع . فان نساء المدن قلما

يرضعنَ اطفالهنَّ لان الاغنياء منهم يعتمدون غالبًا على المرضعات المستأجرات او على البان الحيوانات . اما المرضع المستأجرة فلا تعتني بالطفل كاعتناء امه والعناية بالاطفال ولاسيَّما في الاشهر الاولى كثيرة التعب ولكنها شديدة اللزوم هذا فضلاً عن انهُ يندر ان يكون لبن المرضع موافقًا للطفل من حيث سنهِ او تكون بنيتها جيدة ويكون جسدها خاليًا من الامراض . واذا توفرت فيها كل الشروط اللازمة يندر ان تكون حسنة الاخلاق . والغالب انها تكون فظة تتسلط على اهل الطفل سلطة جائرة فيضطرون ان يبدلوها مرةً بعد اخرى فيسيء الطفل الصغير ربيبة تتقلب بتقلب اهواء المرضعات واختلاف البانهنَّ وهو من مخافة البنية على ما علمتَ

هذا من جهة المرضعات . اما لبن الحيوانات فالوارد منهُ الى المدن الكبيرة مغشوش غالبًا وكثير التعرُّض لجراثيم الامراض لان لبن بقرة واحدة مريضة اذا مزج بلبن مئة بقرة صحيحة افسدهُ كلهُ وعرَّض كل الاطفال الذين يغتذون بهِ للمرض او للضعف وكذلك اذا دخلت الجراثيم المرضية لبن بقرة واحدة عرضًا ثم مزج هذا اللبن بلبن بقرات كثيرات انتشرت الجراثيم المرضيَّة في اللبن كلهِ . ونساء المتوسطين كثيرات الانفعال بما يطرأ على رجالهنَّ من اختلاف الاحوال . والانفعالات النفسيَّة تؤثر في اللبن والطفل تأثيرًا شديدًا حتى انها قد تميتهُ في الحال . ونساء الفقراء مهمات بتحصيل معيشتهنَّ فلا يهتممنَ باطفالهنَّ الاهتمام الواجب ولا يأكلنَ من المآكل المغذية ما يكفي لادرار لبنهنَّ وجعلهِ كافيًا لتغذية الاطفال . والنساء المتروكات ان ولدنَ اولادًا نبذنهم وقد ثبت بالامتحان ان الذين يعيشون من اللقطاء قليلون جدًّا

اما نساء الضياع فيرضعنَ اطفالهنَّ ويعتنين بهم اشد العناية غالبًا . وهنَّ قويات البنية قليلات التعرُّض للامراض الوراثية فيربي اطفالهنَّ ولا يتعرضون للامراض الناتجة من فساد اللبن التي يتعرَّض لها اطفال المدن

هذه اشهر اسباب الموت الكثير بين اطفال المدن . ولا يخفى ان هذه الاسباب لا تزول في سنة او ستين بل تقتضي اعوامًا كثيرة ينتشر فيها التعليم والتهذيب وتعمُّ فيها معرفة قوانين الصحة ونواميس الآداب . ولكنَّ هنالك واسطتين قريبتين يمكن الالتجاء اليهما عجلاً . الاولى ان يرسَل الاطفال وامهاتهم الى الضياع الطيبة الهواء ولو في الاشهر الاولى من حياتهم اذا لم يكن في ذلك مشقة عظيمة فان كثيرين امتحنوا هذه الواسطة وشهدوا بنفعها . والثانية ان تنشأ بيوت لتربية الاطفال الفقراء والمنبوذين . ويقام لهنَّ نساء يرضعنهم ويعتنينَ بهم الاعتناء الواجب وهذا ايضًا قد جرِّب ونجح بعض النجاح . والاول منوط باهالي الاطفال والثاني بالحكومة او باهل البر والاحسان